إضاءة

الشابي... شاعر الحياة والخلود

لعلّ أصدق وصف ينطبق على "الشابي" ما قاله الأديب الناقد "أبو القاسم محمد كرّو" في شهادة له عن هذا الشاعر الفذ، بما لفظه:

هذا النجم الذي هوى وهو في وهج ضيائه.

هذه الصيحة البكر المتفجرة من الأعماق، التي خمدت وهي في زهوة انطلاقتها....

هذا الشابي... شاعر الشعب والحرية، شاعر الحياة والخلود، شاعر الفجر المتألق والانبعاث الجديد. مَنْ من قراء العربية لا يعرفه.... ولا يردد أبياته الخالدة:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بدّ أن يستجيب القدر

ولا بدّ لليل أن ينجلي

ولا بدّ للقيد أن ينكسِر

إن هذا الشاعر قد خرج بالأدب من حدوده الضيقة وطرائقه الميتة، وسما به من دنيا الخصوصيات والتوافه، إلى عالم مشرق جميل، يفيض بالنور والمحبة والخير والكرامة البشرية، ويعبر عن المطالب السامية للنفس الإنسانية، ويصور الجوانب الرفيعة في حياتنا، ويتجاوب في إحساس ووعي كاملين مع مطامح الشعب، مصوراً

obeikandi.com

آلامه وآماله، في توهج حار وجمال فاتن ويقظة مستنيرة تدعو إلى الحياة، وتثور على الذل وتحارب الظلم والطغيان.

في شهر آذار (مارس) من سنة /1909م/ ولد أبو القاسم الشابي ببلدة "الشابيّة" إحدى ضواحي مدينة "توزر" كبرى بلاد "الجريد" بالجنوب التونسي. وهي بلاد ذات طبيعة خلابة ساحرة.

بدأ أبوه، القاضي الشرعي، في تعليمه بإدخاله إحدى المدارس التقليدية "الكتاتيب" وهو في الخامسة من عمره. وكان أبوه يحرص بشدة على تحفيظه القرآن الكريم. ولقد حقق الشابي رغبة والده، فما أن بلغ التاسعة من عمره حتى كان قد أتم حفظ القرآن الكريم بكامله. فدلّ هذا عن نبوغ كامن وعبقرية توشك أن تبهر الورى بأضوائها. ثم أخذ والده يعلمه بنفسه أصول العربية ومبادئ العلوم الأخرى، حتى بلغ الحادية عشرة. وفي خلال هاتين السنتين، طالع شاعرنا شيئاً ليس باليسير من الكتب الدينية والصوفية والفلسفية المتواجدة في مكتبة والده العامرة بنفائس الكتب.

وفي سنة /1921م/، وهو بعد في بداية الثانية عشرة من عمره، أرسله والده إلى العاصمة التونسية، حيث تم التحاقه بالكلية الزيتونية. واستمر يدرس بها العلوم الدينية واللغوية حتى تخرج منها سنة /1927م/. نائلاً شهادة "التطويع"، وهي أرفع شهاداتها الممنوحة في ذلك الحين.

والتحاق الشابي بالزيتونة وفي العاصمة، كان نقطة تحول هامة في حياته. وليس ذلك لأن التعليم بالزيتونة يومئذ، كان تعليماً عصرياً، وإنما لهذا الجو الجديد من الحياة الذي انتقل إليه الشابي، فوجد فيه كثيراً من الحرية، وكثيراً من الانطلاق وكثيراً من النشاط الأدبي. فمضى يثقف نفسه تثقيفاً ذاتياً، فقرأ أول الأمر روائع كتب المهجريين، أمثال:

- جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي. ثم أخذ يطالع أمهات الكتب الأدبية، كالأغاني، وصبح الأعشى، ونفح الطيب، والكامل، والأمالي لأبي علي القالي، والعمدة، وكتاب الصناعتين وغيرهما. ولجهل الشابي باللغات الأجنبية، فقد قرأ أهم ما ترجم من كتب الآداب الغربية. وكان يعيد باستمرار

قراءة كتب "لامارتين" و"جوتيه" ويعجب بهما إعجابه بالمعري وابن الفارض. وبصورة عامة كانت ثقافته عربية، ولكنه اطلع على اتجاهات الشعر الأوروبي، وخاصة الشعر الرومانسي.

وعلى أثر تخرجه من الزيتونة التحق بكلية الحقوق التونسية، فتخرج منها سنة /1930م/. وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من دراسته، بذل الشابي نشاطاً أدبياً واجتماعياً كبيراً. فقاد حركة طلاّب الزيتونة التي كانت تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم والإدارة في الكلية.(1)

وفي هذه الأثناء سنة /1929م/ نكب بوفاة والده المحبوب، ولقد رافقه عليلاً من بلد "زغوان" إلى "توزر" مسقط رأسه، وتجرع غصص مرضه، وطفحت الكأس بموته وهو في الخمسين من عمره، فاضطلع بأعباء عائلية كبيرة واختار طريقاً وعراً، فإنه ضناً بحرية الأديب والشاعر، لم يلج باب كسب العيش من المناصب الحكومية ورضى بحياة بسيطة على رأس أسرته "بتوزر" حيث تزوج، ولعلّ هذا الذي عناه بعضهم حين قال:

((كنا نرى في نفسه الزكية مثال القناعة في أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه)).

وفي السنة نفسها أصيب بداء تضخم القلب، وهو في الثانية والعشرين من عمره، بيد أنه رغم نهي الطبيب لم يقلع عن عمله الفكري، وواصل إنتاجه نثراً وشعراً. وقد نشرت له سنة /1933م/ بمجلة "أبولو" المصرية قصائد عملت على التعريف به في الأوساط الأدبية بالشرق العربي، وإلى أبي القاسم الشابي أوكل صديقه الدكتور أحمد زكي أبو شادي تصدير ديوانه "الينبوع" بمقدمة نقدية متميزة.

لم يكن الشاعر المريض يغادر "توزر" إلاّ في الصيف ويقصد المصايف الجبلية "كعين دراهم" بالشمال التونسي سنة /1932م/ و"المشروحة" ببلاد الجزائر سنة /1933م/.

---

(1) الشابي حياته ـ شعره. أبو القاسم محمد كرو. منشورات المكتبة العلمية ـ بيروت ط1 /1952/ ص24 ـ 27.

وشرع أثناء مصيف سنة /1934م/ في جمع ديوانه "أغاني الحياة" بنية طبعه بمصر، حيث تطوع الأستاذ أبو شادي للإشراف على طبعه، فانتسخه بنفسه بحامة الجريد، مستعيناً ببعض أدبائها، لكن باغتته المنية وحالت دون ما نوى. فقد داهمه المرض وقصد تونس يوم 26 من آب (أغسطس) سنة /1934م/ وبها فارق الحياة يوم 9 تشرين الأول (أكتوبر) سنة /1934م/، وهو لم يكن عند موته قد بلغ السادسة والعشرين عاماً، ثم نقل جثمانه إلى بلدة "توزر" حيث قبره.

نحيف الجسم مديد القامة، قوي البديهة، سريع الانفعال، حاد الذهن، يراه أصدقاؤه بشوشاً، كريماً، وديعاً، متأنقاً، طروباً لمجالس الأدب يحب الفكاهة الأدبية. ويراه من لم يخالطه حيياً محتشماً ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يبديها لخاصة خلطائه في غير تحرج متى اجتمع بهم ويجاهر بها العموم في شعره ونثره. وكان محباً لبلاده، صادق الوطنية، يؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة، حاول جهده أن يحققها في أثناء حياته القصيرة قولاً وعملاً(1)

أجل لقد كان الشابي مؤمناً بالحياة، ومؤمناً أيضاً بحق شعبه فيها. لذلك وجدناه في الطليعة المكافحة عن حقوق الشعب إبان الاحتلال الفرنسي لتونس، والمدافعين عن آماله والمعبرين عن آلامه وطموحه(2)

وعندما دعا الشابي إلى ضرورة إيجاد أدب جديد يتصل بالحياة، ويعبر عن مشاكل المجتمع ومطامحه، حمل الهدامون فؤوسهم وجاؤوا إليه مهرولين وهم يتصايحون: أين هو الكافر؟! أين هو الخيالي؟ أين هو الناعي؟ علينا الركود والجمود. وعبثاً حاول الشابي أن يفهمهم حقيقة الأدب وواجب الأديب في هذا العالم الحديث وحضارته الشامخة، وذهب سدى كل ما أعلنه فيهم من مفاهيم جديدة للأدب وقيم حقيقية للشعر ورسالة الشاعر(3)

لقد أفنى روحه في التغني للحياة وفي إيقاظ الأرواح الخامدة، ولم يسع وراء منصب حكومي أو كسب شخصي، شأنه في هذا شأن المصلحين. وربما خيل

---

(1) أغاني الحياة. أبو القاسم الشابي. الدار التونسية للنشر /1966/ ص 14 ـ 15.

(2) كفاح الشابي أو الشعب والوطنية في شعره. دار الشرق الجديد ـ بيروت /1954م/ ص52.

(3) المصدر السابق ص23.

لشاعرنا في وقت من الأوقات أنه يفني حياته عبثاً، وأنه يحترق من أجل الآخرين، دون أن يلقى منهم الاستجابة المشجعة، بل إنهم ربما أنكروه. وأنه ليحزن لذلك أشد الحزن. وقد كان هذا الإنكار حرياً أن يصرفه عن طريقه، ولكنه مع ذلك لا يملك إلاّ أن يستمر في رحلة الحياة. وربما دفعه اليأس في بعض الحالات للفرار إلى الغاب، من أجل أن يلتمس لروحه الثائرة الطمأنينة والسكينة:

هـــا أنـــا ذاهـــب إلى الغـــاب يـــا شـــعبي

لأقضـــــي الحيـــــاة وحـــــدي بيـــــأس

هـــا أنـــا ذاهـــب إلى الغـــاب علـــي

في صـــميم الغابـــات أدفـــن نفســـي

وبدهي أن الشاعر لم يذهب حقاً لكي يعيش في الغابات، ولكنه اضطر أن يتقوقع داخل شرنقة روحه، يجتر آلامه وأحزانه، ثم يفضي بها بين الحين والحين، على حد تعبير الناقد الأديب د.عز الدين اسماعيل.

وهنا يبرز أمامنا وجه جديد من تجربة الشابي، يلتقي فيه مع كثير من الشعراء الرومانسيين، ونعني بذلك الشعور بالغربة. فقد اضطر هؤلاء الشعراء، أمام أوضاع بلادهم السياسية والاجتماعية المنهارة، ونتيجة لعجزهم عن القيام بدور إيجابي في توجيه الحياة والناس، اضطروا إلى الفرار من مجتمعهم. ولكن أين المفر؟! إنه فرار إلى داخل النفس وإن اتخذ من القرية في الريف أو من الغابة ملاذاً.

والشعور بالغربة شعور أسيان وحزين، يورث صاحبه الكآبة وإن اجتمعت له كل أسباب اللهو والتسلي:

مهمـــا تضـــاحكت الحيـــاة فـــإنني أبـــداً كئيـــب

أصـــغي لأوجـــاع الكآبـــة، والكآبـــة لا تجيـــب

في مهجـــتي تتـــأوه البلـــوى، ويعـــتلج النحيـــب

ويضـــجُّ جبـــار الأســـى، وتجـــيش أمـــواج الكـــروب

إنـــي أنـــا الـــروحُ الـــذي ســـيظل في الـــدنيا غريـــب

ويعـــيش مضـــطلعاً بـــأحزان الشـــبيبة والمشـــيب

ولا شك في أن هذه الغربة قد فرضت نفسها على شاعرنا فرضاً، وإلاّ فإن حبه لأبناء شعبه لم يكن يدانيه حب، ورغبته في النهوض بهم كانت أكيدة.

وإنما فرضها عليه ذلك الصدع الذي فصل بين رؤيتهم ورؤيته، وبين منهجهم ومنهجه، فصاروا لا يتجاوبون معه، ولا يدركون مراميه البعيدة، على حد تعبير الناقد د. عز الدين اسماعيل. وإذا كانت هذه الغربة مفروضة عليه كان من الطبيعي أن تورثه الشقاء:

((يا صميم الوجود كم أنا في الدنيا غريب أشقى بغربة نفسي

بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي

في وجود مكبلٍ بقيودِ تائهٍ في ظلام شكٍ ونحس))

والحق يقال ... فإن لأبي القاسم الشابي روائع شعرية كثيرة، وإنه لتصعب المفاضلة بين قصائده هذه، فجميعها يتسم بالجمال الفني الأنيق بكامل عناصره. ولم تزل قصائده الموجهة إلى الشعب ترانيم خالدة، وإن سكن جسده القبر:

إذا مـــــا طمحـــــتُ إلى غايـــــةٍ

ركبـــتُ المنـــى ونســـيتُ الحـــذَرْ

ولم أتجنـــــبْ وعـــــورَ الشـــــعاب

ولا هبّـــــةَ اللـــــهب المســـــتَعِرْ

ومَـــــنْ يتهيّـــــب صـــــعودَ الجبـــــال

يَعِـــش أبـــد الـــدهرِ بـــين الحُفَـــرْ

obeikandl.com

إن شعر الشابي هو شعر العبقرية والتفوق، فله هالة نورانية يصعب تعريفها، وسواء لدينا فجرُها أو شروقُها، لأنها على اختلاف منازلها تتألق بالجمال، وتنمُّ عن رسالة سامية، لو لم يقلها شعراً لتألقت في وجهه نوراً، على حد تعبير الأديب أحمد زكي أبو شادي.

هذا الشاعر الذي لم يبلغ العشرين، يُحس في باكورة عمره إحساس المصلح صاحب الرسالة. فيقول:

شعري نفاثةُ قلبي إنْ جاش فيه شعوري
لولاهُ ما انجابَ عني غيمُ الحياةِ الخطيرِ
لا أنظمُ الشعرَ أرجو به رِضاءَ الأميرِ
بِمدحةٍ أو رثاء تُهدى لرب السريرِ
حسبي إذا قلتُ شعراً أن يرتضيه ضميري

إن كل قصيدة من قصائد الشابي، طالت أم قصرت، صورة مكبرة أو مصغرة لألق العبقرية والنبوغ، وهو قبل هذا وبعده، المؤمن بالحياة إيمانه بالجمال والحرية والساخط على طغاة العالم، والمصلي في هيكل الحب، والمناجي للطبيعة دون ملل، والمتفائل دائماً، وأخيراً المعانق للموت في غير وجل، عناق الفيلسوف الفنان، الذي ينشد التجربة والعلم حتى تجربة الموت:

سأعيشُ رغم الداء والأعداء
كالنسر فوقَ القمةِ الشماءِ

لقد خدم الشابي الأدب والعرب والإنسانية بحياته وموته على السواء، ودفع وحده الثمن غالياً لذلك. وتبعاً لذلك يجد الشابي نفسه معتنقاً رسالة أدبية سامية هي رسالة التجديد، وبعث روح جديدة في الجسم العربي الهامد. يقول الشابي:

((إنه لا يحزنني شيء في هذه الدنيا، أكثر مما يحزنني التفكير في أنني أموت قبل أن أؤدي رسالة الدنيا التي أحس أنني لم أخلق لغيرها في هذا العالم)).

إن شخصية الشابي هي شخصية المجاهد في سبيل مثل أعلى، لذلك وجدناه زاهداً بالمناصب الرفيعة التي يتكالب عليها أصحابها ليستشعروا شيئاً من العز والجاه. فالشابي، على حد تعبير الناقد "جان طنوس"، لا يتهالك إلاّ على الشعر والمنصب الكبير الذي يطمح إليه إن جاز التعبير، هو أن يؤدي رسالته في هذا العالم بكل صدق وإخلاص:

((كأنهم يحسون أن المناصب هي كل شيء في هذا العالم، وأن منصب القضاء هو سيدها، ولو علموا ما الذي يبغض إليَّ المناصب على اختلافها، ويبغض إليَّ المناصب الشرعية، بالأخص لعذروني)).

❖ عود على بدء

تزوج الشابي قبل أن ينهي دراسته العالية، وترك بعد رحيله طفلين، هما اليوم من خيرة الشخصيات التونسية....

ومن المؤسف أن أبا القاسم الشابي لم يكن موفقاً في حياته الزوجية. وأغلب الظن أنه تزوج إرضاءً لوالديه أو لأحدهما فقط. ومن المؤكد أن الشابي، على حد تعبير أبو القاسم محمد كرو، لم يجد في زوجته، تلك الصورة الشعرية الرائعة التي كان يرسمها للمرأة في أشعاره ويتغنى بها في قصائده. لذلك لم يلبث أن وقع في شراك حب عنيف، قاده إلى دائرة الغرام ومحاريب الهوى حيث رتل (أناشيده في هيكله) وأحرق قلبه وعواطفه بخوراً عند أقدام الحبيب.

على أن بعض أصدقاء الفقيد ينكر هذا الحب، ويحاول تعليل ما قاله الشابي فيه من شعر ونثر، بأنه تمجيد لجنس المرأة وجمالها وفتنتها، لا افتتان وحب لامرأة بالذات. وفي هذا المعنى يقول صديقه الشاعر محمد الحليوي ما نصه:

((... وغاية ما يمكننا أن نعرف، هو أن الشاعر يتغنى بالمرأة، لا بامرأة، ويذكر الحبّ، لا حباً يميزه من أنواع الحبّ الكثيرة ووقائعه الخاصة....)).

وهنا يستشهد الأستاذ الحليوي بالقطعة التالية من كلام الشابي:

((كنا نسير نحو الغاب، وكانت غماغم الحقول تحدثنا عن الحب والحياة، وكانت تقنع السماء سحابة رقيقة ساجية، كأنها قناع حورية من بنات الأحلام، وكان الغاب يبدو في ضياء القمر كرؤيا نبي أو خيال شاعر.

وكان الحبّ يتهادى أمامنا ثملاً بين المروج الناعسة في سكون الليل، وعلى منكبيه درع قصير كضباب الصباح، جميل كغيوم الربيع. ولما اقتربنا من الغاب سمعنا طائراً يغني أنشودة القمر، وسمعنا قيثارة الحب تترنم في جواره، وسمعنا صوتك العذب الجميل، يتغنى بوحي الجمال، يا ابنة الليل ويا ربة الأحلام)).

ثم يواصل الأستاذ الحليوي حديثه فيقول:

((فليس إذن في حب الشابي تلك الحوادث والوقائع التي تتدرج بالحب، وتجعل له أولاً وآخراً، ومعالم كلمات تقال بين المحبين، وآلاماً تعقب الصد، وفرحات تجيء مع الوصال. فكأنه كان يصف فكرة لامرأة، ويصور مثلاً أعلى لا شخصاً من لحم ودم، له ما يميزه عن الأشخاص الآخرين الذين يتغزل بهم شعراء الحب. وربما كانت حرارة شعره الغزلي ولهفته الصادقة متأتية من حرمانه من الاتصال بالمرأة التي توحي إلى الشاعر وتوجه عاطفته الوجهة الفنية)).

ويردّ الأديب أبو القاسم محمد كرّو على الأستاذ الحليوي بما معناه:

((أجزم بأن الشابي أحب فتاة معينة، وأنه شغف بهذا الحب إلى درجة العبادة والتقديس. ولا يستطيع أحد قرأ القصائد:

الساحرة	صلوات في هيكل الحب	أراك
تحت الغصون	الإيمان بالحياة	جدول الحب

أن يقول أنه كان يتغنى بالمرأة "كجنس أو كمثل أعلى" فنحن حين نستمع إلى الشاعر وهو يردد:

أراكِ فتحلـــــو لـــــدي الحيـــــاة
ويمـــــلأ نفســـــي صـــباح الأمـــــل

وتنمـــــو بصـــــدري ورود عـــــذاب
وتحنـــــو علـــــى قلـــــبي المشـــــتعل

فأعبـــــد فيـــــك جمـــــال الســـــماء
ورقـــــة ورد الربيـــــع الخضـــــل

وطهـــــر الثلـــــوج وســـــحر المـــــروج
موشـــــحة بشـــــعاع الطفـــــل

أو حين يقول:

كلمـــــا أبصـــــرتك عينـــــاي تمشـــــين
بخطـــــو موقـــــع كالنشـــــيد

خفـــق القلـــب للحيـــاة ورف الزهـــر

في حقـــــل عمـــــري المجـــــرود

وانتشـــت روحـــي الكئيبـــة بالحـــب

وغنـــــت كالبلبـــــل الغريـــــد

حين نستمع إلى ذلك كله، لا يمكننا أن نشك لحظة في أن هذا الشعر إنما قيل في امرأة معينة، وإن كنا نجهل حقيقة هذه المرأة.

ومن المؤسف والمؤلم معاً، أن هذه الفتاة أو المرأة التي شغف بها الشاعر، قد ماتت قبل وفاته بست سنوات تقريباً، فأحدث موتها في حياة الشابي وفي أدبه انقلاباً بعيد الأثر متعدد الجوانب والصور. ويمكننا أن ندرك هذا من مصادر مختلفة، منها قصيدة (جدول الحب...) التي يقول فيها:

بالأمس قد كانت حياتي كالسماء الباسمة

واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمة

وباختصار... فإن الشابي أحب في حياته حباً حقيقياً صادقاً، وبأنه أغرم بفتاة معينة غراماً عنيفاً مشبوباً، وبأن تلك القصائد الغزلية الحسان المملوءة بالحرارة والوجد، إن هي إلاّ صدى صادق لذلك الحب، وتصوير رقيق لاحتراق الشاعر به، وتمجيده له، وعكوفه عليه.

وهو في شعره، يقدّس الحبّ، وكذلك يمجّد الطبيعة، شأن الرومانسيين. وأكثر شعره يدور حول المحاور الثلاثة: الحب، والمرأة، والطبيعة. مرَّ شعره في ثلاثة أطوار:

♦ **الطور الأول:** هو طور التشاؤم واليأس، حيث يقول في قصيدة (السآمة)"

ســـــئمتُ الحيـــــاةَ، ومـــــا في الحيـــــاة

ومـــــا إن تجـــــاوزتُ فجـــــرَ الشـــــبابْ

فحطمـــــتُ كأســـــي، وألقيتُهـــــا

بـــــوادي الأســـــى وجحـــــيم العـــــذاب

♦ **الطور الثاني**: هو طور التشاؤم المصحوب بالتساؤل والحيرة التي تسعى إلى اليقين:

مـــا للريـــاح تهـــبُّ في الـــدنيا، ويـــدركها اللُّغـــوب

إلاّ ريـــاحي، فهـــي جامحـــةٌ، تمردُهـــا عصـــيب؟

مـــالي تعـــذبني الحيـــاة كـــأنني خَلْـــقٌ غريـــب

وتهـــدُّ مـــن قلـــبي الجميـــل؟ فهـــل لقلـــبي مـــن ذنـــوب

♦ **الطور الثالث**: يرتفع من التشاؤم إلى درجات الصفاء الروحي، كما يتجلى ذلك في قصيدة (نشيد الجبار) وقصيدة (الصباح الجديد):

اســـكتي يـــا جـــراح واســـكتي يـــا شـــجون

مـــاتَ عهـــد النـــواحْ وزمـــانُ الجنـــون

وأطـــل الصـــباح مـــن وراء القـــرون

إن الشابي ظاهرة شعرية حضارية أضخم وأكبر من أن نلتمس تفسيرها في ظروفه الشخصية والإقليمية، ولا بدّ لكي تبدو لنا في عملقتها وتكاملها أن نفسرها في إطار الكيان الثقافي للمغرب العربي، على حد تعبير الأديب الناقد خليفة محمد التليسي، وحركة الإبداع فيه، قديما وحديثاً، ضمن الحركة التاريخية للإبداع العربي الشامل.

إن شخصية الشابي تغنى وتعظم ويكبر دورها حين نضعها في هذا الإطار الذي يمكننا من تفسير هذه الظاهرة الفريدة.